

مَدْخَلُ إِلَى الدَّرَاسَةِ

حمداً لله ، وصلاة وسلاماً على رسوله الكريم وعلى آله وصحابه والتابعين ، وبعد فإن هذا البحث محاولة لدراسة شخصية علمية فذة استطاعت أن تجعل لها مذاقاً خاصاً ، وأن تكون لها ذاتية منفردة بين علماء البلاغة والنقد العرب إلى جانب نشاطها الفنى والعلمى فى مجالات أخرى متعددة . وهى - مع ذلك - شخصية مازالت - بالرغم من المحاولات المخلصة التى بذلت وتبذل - لم تنل ما تستحقه من عناية ، ولم توضع فى حاق موضعها بين أعلام الفكر العظيم الذين أنجبت بهم حضارتنا الاسلامية العظيمة .

وشخصية حازم القرطاجنى ذات جوانب متعددة كلها جدير بالبحث والدراسة وقد كان بعض جوانبها موضوعاً لدراسات جادة سبقت هذه المحاولة وأنارت لها الطريق . ولكن هذه الدراسة ستحاول أن تتناولها من زوايا هامة وطريقة يقتضينا بيان أهميتها وطرافتها أن نعرض لما سبقها من جهود (١) ، وأن نحدد فى ضوء هذا العرض زاوية الدراسة ، ومدى ما فيها من اضافة لفكرتنا عن حازم .

لعل من أوائل الدراسات التى استيقظت نظر الباحثين فى مصر ، وعرفتهم بشخصية حازم القرطاجنى دراسة الاستاذ الدكتور محمد مهدى علام التى نشرها على عديدين من أعداد حولى كلية الآداب بجامعة

(١) لا يشمل هذا العرض - بطبيعة الحال - المصادر القديمة التى وردت فيها ترجمة لحازم أو تعريف ببعض جهوده العلمية .

عين شمس : تناول في الجزء الذي نشر بالعدد الأول (١) التعريف بهذا الشاعر العظيم المنسى ، وعرض لنشأته في الأندلس ، وهجرته إلى المغرب ، وبما صنفه أو نسب إليه من مؤلفات ، وقد حاولت هذه الدراسة تكوين صورة واضحة للقسمات لحياة هذا العالم الشاعر ، وجعلت من التعريف به مدخلا للدراسة فن المقصورة في الأدب العربي ، ووضعت حازما في موضعه الحق من شعراء المقاصير . وخصص الجزء الثاني من هذه الدراسة للتحقيق العلمي لمقصورة حازم (٢) .

وثمة دراسة أخرى مختصرة قام بها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي جاءت بمثابة مقدمة لنشر المنهج الثالث من القسم الثاني من كتاب حازم « منهاج البلاغة » وسراج الأدباء » أشار فيها إشارة عامة إلى التأثير الأرسطي على حازم في ميدان البلاغة والشعر (٣) مقررًا فيها « أن حازما القرطاجني هو أول من أدخل نظريات أرسطو في كتب البلاغة العربية الخالصة ، فلا عبد القاهر في « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ولا الشهاب الخفاجي في « سر الفصاحة » ، ولا السكاكي في « مفتاح العلوم » ولا ابن رشيق في « العمدة » قد تعرض لهذه النظريات وإن كانت لا تخلو من أثر أرسطو . وفي هذا فضل عظيم لحازم القرطاجني يدل على سعة أفقه العلمي ومدى فهمه الدقيق لأسرار البلاغة » (٤) .

(١) عنوان هذا الجزء : « أبو الحسن حازم القرطاجني وفن المقصورة في الأدب العربي » الحولية ، مايو ١٩٥١ ، ١ - ٣١ .

(٢) حولية آداب عين شمس ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، ١ - ١٠١ .

(٣) عنوان الدراسة والتحقيق : « حازم القرطاجني ونظرية أرسطو في البلاغة والشعر »

وقد نشرت في كتاب « إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين » ٨٥ - ١٤٦ .

(٤) السابق : ٨٧ - ٨٨ وفي هذا الرأي تعميم دون مسوغ كما سيتضح فيما بعد

وثمة كتابان آخران يتصلان بحازم : أولهما تحقيق علمي لما وجد من كتاب حازم « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » قام به الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، ونال به اجازة الدكتوراد من جامعة باريس . وفي مدخله إلى التحقيق قدم ترجمة لحياة حازم والظروف المختلفة التي اكتنفها ، وتعريفاً بمصنفاته ، وأشار إشارة سريعة لمنزلة كتابه بين كتب البلاغة العربية (١) مع تحليل عام للكتاب من حيث منهجه وما اشتمل عليه من موضوعات ، وثاني الكتابين تحقيق لمجموعة من قصائد حازم تحت عنوان « ديوان حازم القرطاجني » (٢) قام به الأستاذ عثمان الكعاك ، وصدره بترجمة سريعة لحازم ، وإشارة عامة لمصنفاته وأورد مثالا من كتاب المنهاج من القسم الذي نشره الدكتور بدوي .

هذه هي أشهر الدراسات التي وقعنا (٣) عليها وهي أهمها فيما نعلم . أما هذه الدراسة فقد حاولت أن تقدم صورة لحازم تلم بجانبين متكاملين من شخصيته :

أولهما يشمل حياته في الأندلس وهجرته إلى المغرب ، وجهوده

(١) مدخل المنهاج : ١١٧ - ١١٨ .

(٢) نشرته دار الثقافة في بيروت ١٩٦٤

(٣) تشير المراجع التي بين أيدينا إلى دراسة هامة أخرى قام بها المستشرق الأسباني اميليو جارسيا جومس E. Garcia Gomez اهتم فيها بدراسة المعلومات الجغرافية والتاريخية التي انفردت بها المقصورة . وقد نشرت في : AL - Andalus ، 1933, pp. 18 - 103 : لم يتيسر لنا الرجوع إليها ، والموضوع الذي نعالجه على أية حال يمثل زاوية مخالفة . (وانظر عن دراسة جومس مدخل المنهاج ٢٨٥) كما أن ثمة دراسة للدكتور شكري عياد لم نذكرها هنا بالرغم من أهميتها الكبيرة ناقشناها طويلا فيما بعد . وقد استبعدنا دراسات أخرى أشارت إلى حازم إشارات عامة أوتشتمل على آراء ونظرات سريعة .

الشعرية ، والنحوية ، والبلاغية ، ونظرا لقلة ما ورد لنا من أخبار عن حياته الخاصة فقد اتجهت الدراسة في هذا الجانب إلى شعره تحاول أن تلمس فيه شيئا من ملامح نفسيته وهموم روحه تهدينا إلى التعرف على حازم من باطن وهي محاولة نرجو أن تكون الدراسة قد وفقت فيها . أما ثانياً الجانبين فقد تغيا بيان المصادر التي شكلت شخصيته البلاغية والنقدية بوجه خاص وهي أبرز ما نعرف عن حازم . ولقد أمحض هذا الجانب للكلام على نظرية هامة يقوم عليها فكره النقدي في ميدان نقد الشعر ، وهي نظريته في المحاكاة والتخييل كما يوضحها كتابه « المنهاج » . وإذا علمنا أن كتابه هذا هو الكتاب الوحيد الذي وصلنا شبه كامل لحازم ، وانه أخطر ما نعرف من كتب لحازم على الإطلاق بل لا نعد مغالين إذا قلنا إنه من أخطر الآثار العربية القديمة في النقد عامة ، وفي نقد الشعر خاصة ، وإذا علمنا أيضا أن نظرية المحاكاة والتخييل هي أس هذا الكتاب وعمدته أدركنا إلى أي مدى تصل أهمية دراسة هذه النظرية وأصولها عند حازم . وقد جعلت هذه الدراسة مدارس تلك النظرية الفلسفية في أصولها نافذة تطل منها على مصادر فكره النقدي المتأثر بفلسفة أرسطو اليونانية وكتب الفلاسفة المسلمين : الفارابي وابن سينا وابن رشد ، وعلى تطبيقه أفكارهم الفلسفية على الشعر محاولا بذلك أن يسد الفجوة التي قامت بين الفلاسفة والبلاغيين في دراسة الشعر ونقده ، هذه الفجوة التي حرمت النقد الأدبي العربي - في رأينا - من روافد ثقافية كانت جديرة بإفادته وتطويره . وتتجلى عبقرية حازم في قيامه بهذا الدور المتفرد ، فقد تعقّل الفلسفة ومباحثها ، وضرب

بسهام وافر في الدراسات العقلية ، وأسعفته موهبته الشعرية واهتمامه الأصيل بالأدب فكان أول بلاغي وناقد عربي ينظر إلى الشعر نظرة نفاذة وبارعة يسندها نصيب كبير من الذوق المرهف والعقل المثقف .

ويتبين لنا من هذا العرض أن الدراسة لم تقف عند حدود الترجمة لحازم ، فليست أخباره من الكثرة ولا الآراء فيها من الاختلاف بحيث تكون موضوعاً للاجتهاد والترجيح ، ولم تتناول تكوينه الثقافي والعلمي فحسب بل إنها أضافت لهذين الأمرين محاولة للتعرف على نفسية حازم من شعره ، وبياناً لما تعتقد أنه جوهر العطاء الخصب الذي منحه حازم للدراسات الأدبية العربية ، فحاولت أن تتصل اتصالاً مباشراً بكتاب « فن الشعر » لأرسطو وترجمته وشروحه الإسلامية ، وبكتاب أرسطو في الخطابة ، وآرائه في « النفس » وترجمتها عند المسلمين ، ونظريات المسلمين في النفس عامة والقوى النفسانية خاصة ، وكذلك بكتاب « منهاج البلغاء » لحازم باعتبار هذه جميعاً مصادر لعلاج الفكر الحازمي علاجاً دقيقاً . واتبعت الدراسة في هذا كله منهجاً مقارناً تظهر به أوجه التأثير والتأثر بين الأفكار الأرسطية ، ونظائرها في الفكر الإسلامي الفاسي ، والفكر النقدي العربي ، كما تظهر به ملامح الشخصية العلمية لحازم القرطاجني الذي هو موضوع هذه الدراسة .

وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة فصول وخاتمة ، تناول أولها دراسة حياة حازم وظروف عصره التاريخية والثقافية في الأندلس والمغرب ، ودراسة عن شعر حازم تتضمن محاولة استكشاف ملامح نفسيته من شعره ، وتعريفاً بجهوده في النحو والبلاغة . وتناول ثانيها دراسة نظرية المحاكاة في الشعر عند حازم ومصادرها الفلسفية . وتناول ثالثها دراسة نظرية التخيل في

الشعر عند حازم ومصادرها الفلسفية. وأما الخاتمة فقد جردت لاثبات خلاصة مركزة لأهم ما ناقشت الدراسة من قضايا ، وما توصلت إليه من نتائج ، وما استيقظ نظريا من مشكلات في الفكر الإسلامي لم تنل حقها من الدراسة بالرغم من أنها جديرة بصرف العناية إليها كفاء ما تقدمه لنا من معرفة بتراثنا ، وثقة بحضارتنا ، وإيمان بدرونا العظيم في تقدم الانسانية واستشرافها للحق والخير.

وقد شجعتني تقدير أعضاء لجنة الأدب في مجمع اللغة العربية الموقر - وهم من صفوة أعلام الفكر والأدب العربي - لهذه الدراسة وما شملوها به من ثناء طيب في تقريراتهم التي رشحتها للجائزة الأولى في المسابقة الأدبية لعام ١٩٧٠ على الإقدام على نشرها . ولكنني حين أزمعت القيام بالنشر لم أجد بُدا من مراجعة كثير من المسائل بتفصيل القول في بعض وإجماله في بعض ، واستكمال القول في أمور كان لابد من بيانها لكمال المعالجة ، وإعادة صياغة عدد من الفقرات على نحو يجعلها أكثر وفاء بغرضها ، وأفصح في العبارة عن مضمونها حتى إن صورة البحث قد اختلفت اختلافا كبيرا عما كانت عليه عند تقديمه لمسابقة المجمع الموقر وإن ظل محتفظا بأفكاره الأساسية وخطوطه الرئيسة كما كانت عند إعداد أول مرة .

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أزجي شكري خالصا لعدد من أساتذتي وزملائي لما تفضلوا به من قراءة مسودة الدراسة وما أشاروا به من اقتراحات كان لها أثرها الكبير في إظهار البحث على هذه الصورة . وأخص بانشكر الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان استاذ النقد الأدبي والأدب المقارن والدكتور حسن الشافعي والدكتور على عشري زابيد الأستاذان بكلية دار العلوم والدكتور عبدالله الغذامي الأستاذ بكلية الاداب جامعة الملك عبدالعزيز . ونسال الله تعالى أن يجنبنا عثرات الطريق إنه سبحانه ولى التوفيق ،

سعد مصلوح